

حسن التخلص

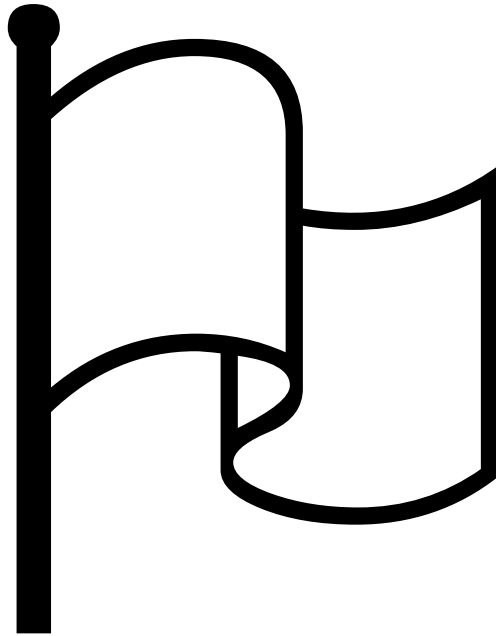
في اللغة والعمارة

المهندس الدكتور

عماد يونس لافسي

أستاذ مشارك

كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد المصطفى وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغر الميامين، أما بعد:

فإن هذا الموضوع تمتد مساحته على حقلين معرفيين قد يبدوان للوهلة الأولى أن لا علاقة بينهما البتة، ألا وهما اللغة والعمارة، اللغة بمعناها الواسع الكبير؛ صوتا وصرفا ونحوا وبلاغة ودلالة وكتابة، والعمارة بمعناها الواسع الكبير أيضا في مستوياتها التركيبية والجمالية والوظيفية، وقد يجد بعض القراء غرابة في الجمع بين الحقلين، وإلا فمن أين تأتي العلاقة بين حقل معرفي ينصب اهتمامه على الكلمة وما يطرأ عليها من تغيير في بنيتها قبل التركيب وبنيتها بعد التركيب وما يصحب ذلك من تغيير في المعنى، وكل ذلك يميزه الإنسان بحاسة السمع، لأن الكلام صوت قبل كل شيء، وإن اللغة لا تتعدى أن تكون أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم كما يقول ابن جني أحد علماء العربية الأفاضل، وحقل معرفي آخر تكون حاسة البصر هي المقبس الأساس الذي يتحسسها ألا وهو عالم العمارة الجميل؛ كتلة وفضاء وشكلا ولونا وملمسا وتناسبا. إن هذه الغرابة قد تلاشت ولم يعد لها مكان بعد أن قدمت بحثي في الدكتوراه الذي كان يحمل عنوان (التوافق العلمي والجمالي بين اللغة والعمارة) وقد وقفت فيه على الكثير من التفاصيل الكبيرة والصغيرة بين اللغة والعمارة، فأثبتت بصورة لا تقبل الشك أن هناك توافقا كبيرا بين الحقلين، وربما وصل هذا التوافق إلى حد التطابق في بعض النقاط ولاسيما في المستوى التركيبي الذي تقابل فيه المفهوم الإسنادي في النحو العربي والمفهوم الإنشائي في العمارة، ووجدت ظلالات لما يزيد عن ثمانين مصطلحا بلاغيا في عالم العمارة الجميل، فضلا عن التوافقات في المستوى الصرفي وفي نظريات نشأة اللغة والعمارة والعوامل التي تؤثر على تطورهما معا. وكانت نتيجة النتائج في هذه الأطروحة تتلخص بأن الشكل في العمارة يقابل اللفظ في اللغة، وأن التركيب الإنشائي في العمارة يقابل التركيب النحوي في اللغة تأسيسا على مفهوم (الإسناد) في الحقلين، وأن الوظيفة في العمارة تقابل المعنى في اللغة، وفي كل ذلك كلام طويل.

ولعل سائلا يسأل ما الغاية المنتظرة من بحوث يسير نهجها على هذه الشاكلة، حتى لو أثبتنا أن هناك علاقة بين هذين الحقلين، والجواب على ذلك يكون على النحو الآتي: إن أهمية هذا البحث تكمن في ضرورة إطلاع المعمار المبدع الذي يسعى إلى خلق خصوصية في نتاجه المعماري على خزائن اللغة العلمية والجمالية لأن ذلك سينعكس بطريقة ما على نتاجه المعماري سواء أكان ذلك الانعكاس صادرا عن قصد ووضوح أم كان عفويا بسبب تشبع أفكاره وروحه بمفاهيم اللغة والبلاغة والأدب.

والبحث من بعد ذلك يفترض وجود قدرات فنية وعلمية ولغوية لدى بعض المبدعين الذين يمتازون بالموسوعية في تحصيلهم المعرفي، تمكّنهم من الوصول إلى نوع من الترجمة التي هي ليست في مجال ترجمة لغة منطوقة أو مقروءة إلى لغة أخرى، بل من نوع ترجمة فن جميل إلى فن جميل

آخر، وذلك بتفاعل يصعب تفسيره لكثرة العناصر الداخلة فيه، وتشمل الذكاء والحس الفني والبيئة والعقيدة فضلا عن الرصيد المعرفي وغير ذلك من العناصر الداخلة في تكوين شخصية المبدع القادر على هذا النوع من الترجمة، عند ذلك نتمكن من ضمان حصول نوع من القدر الذي تنصهر بحرارته المفاهيم العلمية والقيم الجمالية المستقاة من التركيب اللغوي لتتسبك بقلب جديد يحمل قيما جمالية وأغراضا وظيفية أخرى، وقد يكون هذا الجديد ببعدين كلوحة فنية أو ثلاثة أبعاد كما هو الحال في النحت والعمارة. وقبل الدخول إلى صلب الموضوع من تعريف للمصطلح أود الإشارة إلى أن هذا المصطلح يكاد يتطابق معناه اللغوي مع معناه الاصطلاحي، وهذا لا يكون مألوفا في معظم المصطلحات البلاغية، ولكن ذلك قد يؤدي إلى إشكال في الفهم، ويعود هذا الإشكال إلى أننا يمكن أن نطلق هذا المصطلح بمفهومه اللغوي على الكثير من السلوكيات المادية أو الثقافية، فالذي يقود سيارته بسرعة معينة ويظهر له فجأة حيوان يسير ليقطع الطريق فيتخلص منه بطريقة ذكية من دون أن يحصل حادث نقول عن ذلك هذا حسن تخلص، والدبلوماسي الذي يستطيع أن يفاوض الخصم من غير أن يعطي تنازلات أمام الضغوط التي يسلطها الطرف الآخر نستطيع كذلك أن نسمي هذا السلوك (حسن تخلص) ونستطيع أن نعدد الكثير من الأمثلة لنثبت صحة هذا الأمر، وإذا أردنا الحقيقة فهو أمر واضح لا يحتاج إلى إثبات، لأن حسن التخلص سلوك إنساني فطري وجد مع الإنسان منذ أن خلق على هذه الأرض.

لاشك في أن مصطلح (حسن التخلص) من المصطلحات المعروفة في البلاغة وقد ذكره البلاغيون في مؤلفاتهم وكذلك المفسرون، أما لغة ف (خلص الشيء بالفتح يخلص خلوصا و خلاصا إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم)¹، (وخلص الله فلانا نجاه بعد أن كان نشب كأخلصه فتخلص كما يتخلص الغزل إذا التبس)² والتخلص مصدر (تخلص) على وزن تفعّل، وهذا الوزن يفيد معاني متعددة كما هو معروف في الصرف أوصلها ابن عصفور الى تسعة معان؛ هي التعدية والمطاوعة والحرص على الإضافة وأخذ جزء بعد جزء والختل والتوقع والطلب والتكثير والترك³، والذي أرجحه من هذه المعاني في هذا الموضوع هو (الطلب)، ف (تخلص) هنا أفادت طلب الخلاص، فيكون معنى المصطلح لغويا هو (طلب حسن الخلاص)، ويعرف اصطلاحا بأنه: (حسن الانتقال من غرض إلى غرض آخر في القصيدة)⁴ وقيل هو: (استطراد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد)⁵ وقد يسمى (براعة التخلص)

¹ لسان العرب، (خلص) 7 / 26.

² تاج العروس، (خلص) 17 / 563.

³ ينظر: الممتع في التصريف، 1 / 183 - 185

⁴ معجم المصطلحات البلاغية، 1 / 393.

⁵ خزنة الأدب وغاية الأرب، 1 / 329.

التي عرّفها ابن أبي الإصبع المصري بأنها: (امتزاج ما يقدّمه الشاعر من البسط، أما المدح أو الذم، أو غيره من نسيب أو وصف أو أدب أو زهد أو فخر أو مجون، أو غير ذلك من الفنون بأول بيت من المدح، وقد يقع ذلك في بيتين متجاورين، وقد يقع في بيت واحد)⁶. وهذا يعني أنه (لا يشترط أن يتعيّن المتخلّص منه بل يجري ذلك في أي معنى كان ... ولكن الأحسن أن يتخلّص الشاعر من الغزل إلى المدح.)⁷، وعرّف أيضا بأنه: (أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سببا إليه - فيكون بعضه آخذا بقراب بعض من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفرغا وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعا للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضي حيث شاء فلذلك يشق التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر)⁸.

وقبل التمثيل لهذا الضرب الجميل من الفنون البلاغية، لابد من الإشارة إلى أن هذا الفن ينسب إلى المتأخرين من شعراء العرب وإن كان للأوائل الفضل في فتح بابه.⁹

إن التأمل في هذه التعريفات لـ (حسن التخلّص) يؤدي إلى تمييز ضربين منه، الأول؛ أن يتخلص الشاعر من غرض شعري إلى غرض شعري آخر من غير أن يمر بغرض ثالث بينهما، لذلك قيل (كأنهما أفرغا في قالب واحد) وغالبا ما يكون الغرض الأخير من القصيدة هو المدح، لذا يكون الانتقال من الغزل إلى المدح، والثاني؛ أن ينتقل الشاعر من غرض الغزل إلى غرض ثان مثل الحكمة ثم ينتقل إلى المدح، وربما يفضل هذا الضرب من (حسن التخلّص) عندما يكون الممدوح له من الجلال ما لا يستحسن الشاعر معه أن ينتقل من الغزل إلى المديح مباشرة، كأن يكون الممدوح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنمثل للضربين معا بإذن الله تعالى.

أمثلة بلاغية في (حسن التخلّص)

من الأمثلة على النوع الأول قول أبي نواس يمدح الخصيب¹⁰ والي مصر بقوله¹¹:

⁶ البرهان في إعجاز القرآن أو (بديع القرآن)، 229.

⁷ خزانة الأدب وغاية الأرب، 1/ 329.

⁸ المثل السائر ج2/ص244

⁹ ينظر: البرهان في إعجاز القرآن أو (بديع القرآن)، 229. و خزانة الأدب وغاية الأرب، 1/ 329.

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادٍ جرت فجرى في إثرهن عبير
ذريني أكثر حاسديك برحلةٍ إلى بلد فيه الخصيبُ أميرُ
إذا لم تزر أرض الخصيبِ ركابنا فأَيَّ فتى بعد الخصيبِ نزور
فما حازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير
فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور
ولم تر عيني سؤددا مثل سؤدد يحل أبو نصر به ويسير
وإني جدير إذ بلغتك بالمنى وأنت بما أملت منك جدير
فإن تولني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور

نلاحظ أن الشاعر انتقل بطريقة رشيقة سريعة من الغزل والنسيب إلى المديح في بيت شعري واحد وهو البيت الرابع:

ذريني أكثر حاسديك برحلةٍ إلى بلد فيه الخصيبُ أميرُ

وهذا من حسن التخلص الذي جاء في بيت واحد. (ومن المخالص المستحسنة لأبي تمام قوله:

لا والذي هو عالمٌ أن النوى مرٌّ، وأنَّ أبا الحسينِ كريمٌ

مازلتُ عن سننِ الودادِ ولا غدتُ نفسي على ألفِ سواك تحومٌ)¹²

وهذا كالذي سبقه جاء حسن التخلص فيه ببيت واحد كما هو بين.

ومن المخالص الجميلة أيضا ما جاء في شعر أبي العلاء المعري وهو قوله:

¹⁰ الخصيب هو والي مصر وواه الرشيد، وقيل إن سبب توليته أن الرشيد قرأ يوما في المصحف فأنتهى إلى قوله تعالى (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي) فقال لعنه الله ما كان أرقعه ادعي الربوبية بملك مصر والله لأولينها أحسن خدمي فولاهم الخصيب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج1/ص188)

¹¹ الأغاني (أخبار أبي نواس)، 1/173-174، وينظر: مرآة الجنان، 3/38، و خزنة الأدب وغاية الأرب، 1/330

¹² ينظر: خزنة الأدب وغاية الأرب، 1/332. والمثل السائر، 2/246، وديوان أبي تمام 1/342.

(ولو أن المطي لها عقولٌ وجدك لم نشدّ بها عقالا
مواصلةً بها رحلي كأني عن الدنيا أريد بها انفصالا
سألن فقلتُ مَقْصِدُنَا سعيدٌ فكانَ اسمُ الأميرِ لهُنَّ فالأ

ويعد هذا التخلص من روائع النظم لما تضمنه من تورية في اسم (سعيد) إذ كان هذا هو اسم الأمير وأن العرب تتفاعل بالاسم الحسن.¹³ ولابن الحجاج¹⁴ قصيدة يضمنها هذا الفن الرفيع يقول فيها:

ألا يا ماء دجلة لست تدري بأني حاسد لك طول عمري
ولو أنني استطعت سكرت سكرًا عليك فلم تكن يا ماء تجري
فقال الماء قل لي كل هذا بم استوجبته يا ليت شعري
فقلت له لأنك كل يوم تمر على أبي الفضل بن بشر
تراه ولا أراه وذاك شيء يضيق عن احتمالك فيه صبري

وهذا من التخلص البديع الذي استطاع الشاعر أن ينتقل فيه من غرض شعري حوارى مفترض مع النهر إلى المديح مديح أبي الفضل ابن بشر.

كل الأمثلة السابقة تنتمي إلى الضرب الأول من حسن التخلص الذي قلت عنه بأنه انتقال من غرض شعري إلى غرض شعري آخر بصورة مباشرة.

أما الضرب الثاني من حسن التخلص فهناك قصيدتان أحسبهما أنموذجين مثاليين له، وهما قصيدة (بردة المديح) للبوصيري، وقصيدة (نهج البردة) لأحمد شوقي، إذ انتقل الشاعران بعد المقدمة الغزلية إلى غرض آخر وهو (الحكمة) قبل أن ينتقلا إلى الغرض الأساس من القصيدتين وهو مدح الرسول المصطفى ﷺ. لا شك في أن التوافق الكبير بين القصيدتين جاء لسبب معروف وهو معارضة أحمد شوقي للبوصيري:

¹³ ديوان أبي العلاء المعري (سقط الزند)، 263، وينظر: خزنة الأدب وغاية الأرب، 1/ 334.

¹⁴ هو الحسين بن أحمد بن الحجاج أبو عبد الله الشاعر الماجن المقذع في نظمه يستكف اللسان عن التلفظ بها والأذنان عن الاستماع لها وقد كان أبوه من كبار العمال وولى هو حسبة بغداد في أيام عز الدولة توفي في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. البداية والنهاية 11/ 329.

القصيدة الأولى: بردة المديح للبوصيري¹⁵:

هذه قصيدة مكونة من مئة وستين بيتا، نظمها أبو عبد الله البوصيري في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم¹⁶، وبيّن ذلك في آخر بيت فيها إذ يقول:

أبياتها قد أنت ستين مع مئةٍ فرّج بها كربنا يا واسع الكرم

وقد سار على نهج الأقدمين في المقدمة الغزلية في القصيدة، وامتدت هذه المقدمة إلى أحد عشر بيتا، يبدأ بقوله:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبّت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضام

فما لعينيك إن قلت اكفها همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم

ثم يواصل هذه الأبيات الجميلة الرقيقة، ويتخلص منها تخلصا رائعا، لا ينتقل فيه إلى المديح كما هو حال الذين تقدّم ذكرهم، وهذا على ما أرى أمرٌ مقصود أرادّه الشاعر، وأفسره بأن الانتقال من الغزل إلى المديح لا يليق مع مقام النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لذلك تخلّص الشاعر إلى غرض يعد من الأغراض المحببة إلى النفس البشرية في الأعم الأغلب، وهو يتوسط الأغراض من حيث تأثيره الانفعالي على المتلقي، ألا وهو غرض الحكمة، إذ يقول في آخر بيت غزلي مخاطبا لائمه في الهوى العذري :

محضنتني النصح لكن لست أسمعُه إن المحبّ عن العذال في صمم

ثم يقول مبتدئا بمقطع الحكمة متخلصا من الغزل:

إنني اتهمت نصيح الشيب في عدلٍ والشيب أبعد في نصح عن التهم

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهزم

¹⁵ محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله الصنهاجي شرف الدين أبو عبد الله الدلاصي ثم البوصيري المتوفى سنة 695 خمس وتسعين وستمائة، وأبو صير قرية كبيرة بالقيوم عامرة، من تصانيفه (نخر المعاد في معارضة بانة سعاد)، والقصيدة الهمزية في المدائح النبوية المسماة بأمر القرى، والكواكب الدرية في مدح خير البرية المشهورة بقصيدة البردة، الكلمة الطيبة والديمة الصبية، وقيل: شعره في غاية الحسن واللطافة عذب الألفاظ منسجم التراكيب. (ينظر: هدية العارفين، 6/ 138، وفوات الوفيات، 2/ 343، وتاج العروس، 10/ 205).

¹⁶ ينظر في هذه القصيدة: في المنهج النقدي، 141، بردة المديح المسماة الكواكب الدرية في مدح خير البرية، شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، شرح ألفاظها الشيخ يوسف النبهاني، دار الحديث الكتانية. (لا.ت)

ويعمضي في أبيات الحكمة قائلاً:

فلا تُرْمُ بالمعاصي كسر شهوتها إنّ الطعام يقوّي شهوة النهم

والنفس كالطفل إنّ تهمله شبّ على حبّ الرّضاع وإنّ تقطمه ينفطم

ثم يخاطب نفسه بعد خمسة عشر بيتاً من الحكمة لينهي أبياتها قائلاً:

أمرتكَ الخيرَ لكن ما ائتمرت به وما استقمت، فما قلبي لك استقم

ولا تزوّدت قبل الموتِ نافلةً ولم أصلّ سوى فرض ولم أصم

ثم يأتي بيت (التخلص) وما أروع من بيت، يتخلص فيه من الحكمة ليدخل حيّز المديح فيقول:

ظلمتُ سنّةً من أحيا الظلامَ إلى أن اشتكت قدماء الضّرّ من ورم

وشدّ من سغبٍ أحشاه وطوى تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم

وراودته الجبال الشّم من ذهبٍ عن نفسه فأراها أيّما شمم

ثم يستمر بالمديح مديح رسول الله صلى الله عليه وآله إلى نهاية القصيدة على مدى أكثر من مئة وثلاثين بيتاً، يتناول فيها كل محامد الرسول ﷺ.

القصيدة الثانية: نهج البردة لأحمد شوقي¹⁷

سميت هذه القصيدة بـ (نهج البردة) لأن أحمد شوقي سار فيها على نهج البوصيري في قصيدته (بردة المديح) المذكورة آنفاً، إذ جاءت قصيدة شوقي على حرف الروي نفسه (الميم) وعلى بحر البسيط الذي نظمت عليه بردة البوصيري، وإذا كانت قصيدة البوصيري امتدت إلى مئة وستين بيتاً فإن قصيدة شوقي بلغت مئة وتسعين بيتاً، وهذا لا شك في أنه يدل على قدرة الشاعرين الفائقة على هذا النفس الطويل في النظم، ويفتح شوقي بردهته بالغزل قائلاً:

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي بالأشهر الحرم

رمى القضاء بعيني جودرٍ أسداً يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

لمّا رنا حدثتني النفس قائلةً يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي

¹⁷ أحمد شوقي، الأعمال الشعرية الكاملة، 1/ 190-208.

هذا الغزل الرقيق الذي يهيم به السامع يعز على الشاعر أن ينتقل منه إلى غرض آخر إلا إذا كان يمتلك عبقرية فذة مثل أحمد شوقي ولاسيما إذا علمنا أن هذه المقدمة الغزلية تمتد إلى أربع وعشرين بيتاً أودعها ما أودعها من رقيق الألفاظ وجميل المعاني. وربما تجلّى هذا الغزل ووصل إلى ذروته في قوله:

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبداً أسهرت مضناك في حفظ الهوى فم

ثم ينهي المقدمة الغزلية بقوله:

لم أغش مغناك إلا في غضون كرى مغناك أبعد للمشتاق من أرم

ثم يتخلّص في البيت الخامس والعشرين من الغزل إلى الحكمة مبتدئاً بموعظة النفس وتحذيرها من الدنيا وما تخفيه من مصاعب ومصائب فيقول:

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم

وهذا التخلّص يمكن النظر إليه من جانبين مختلفين؛ الأول: إن هذا الانتقال الحاد بين الغزل ومبقيات النفوس لا يعد تخلّصاً، لأن التخلّص أوجب النقاد فيه أن لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد كما تبين في أحد تعريفات (حسن التخلّص) السابقة.

وتأسيساً على ذلك فقد عد بعض النقاد هذا الانتقال عند شوقي (اقتضاباً) وليس تخلّصاً¹⁸، على اعتبار أن الاقتضاب هو أن ينتقل الشاعر من معنى إلى آخر من غير تعلق بينهما¹⁹ كما سيوضح لاحقاً.

والجانب الثاني: هو أن الإنسان بطبيعته يخاف من المجهول الذي لا يعلمه، فمهما بلغت فرحته ونعيمه يظل يتذكر أن هذا النعيم زائل لا محالة ولاسيما إن كان عاقلاً حكيماً ولا أظن أحمد شوقي إلا من هذه الفئة من الناس، فكأنه نقل هذا الحال الذي يعد من لوازم الحياة البشرية إلى قصيدته في هذا الموضع تحديداً ليكون مقدمة للحكمة التي سيودعها في أبياته اللاحقات، فإذا نظرنا إلى المسألة بهذا المنظار عند ذلك سيكون الانتقال تخلّصاً حسناً من الغزل إلى الحكمة. ويستمر شوقي بدم الدنيا وما فيها فيقول مخاطباً نفسه:

طوراً تمدك في نعمى وعافية وتارةً في قرار البؤس والوصم

¹⁸ ينظر: في المنهج النقدي، 158.

¹⁹ ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، 1/ 331.

كم ضللتك، ومن تحجب بصيرته
إن يلق صاباً يرد، أو علقماً يسُم

ثم يستمر ليقول أجمل بيتين من أبيات الحكمة في هذه القصيدة (على ما أرى) وهما قوله:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرّها في مرتع وخم

ثم يتداخل لون الحكمة مع لون المديح تداخلاً لا أقل من تداخل ألوان الطيف المتجاورة، إذ يقول:

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

ألقي رجائي إذا عزّ المجيرُ على مفرّج الكرب في الدارين والغمم

إلى أن يقول مبتدئاً مدحه رسول الله ﷺ:

لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

فكل فضل وإحسان وعارفةٍ ما بين مستلّم منه وملتزم

علقت من مدحه حبلاً أعزّ به في يوم لا عزّ بالأنساب واللحم

ثم يستمر إلى نهاية القصيدة مادحاً الرسول الأعظم عليه صلوات الله وسلامه، منتقلاً من موضوع إلى آخر كما فعل البوصيري من قبل.

المصطلحات ذات الصلة بـ (حسن التخلص):

وردت مصطلحات في كتب البلاغة تمت بصلة مع حسن التخلص مع اختلاف يسير في المفهوم الدقيق للمصطلح، ومن هذه المصطلحات:

أولاً: الاستطراد:

وقد وردت فيه عدة تعريفات، إذ قيل عنه (أن يتطرق من كلام إلى كلام آخر بوجه يصل ما بينهما ويكون الكلام الثاني هو المقصود كخروج الشاعر من السب إلى المدح بمعنى يتعلق بالطرفين مع أنه قصد المدح)²⁰. وقيل هو: (الاستطراد ذكر الشيء في غير محله مع غيره لمناسبة بينهما)²¹، ويأخذ الاستطراد معنى آخر فهو (أن يري الشاعر أنه يريد مذهباً وهو إنما يريد غيره فإن قطع ورجع إلى ما

²⁰ التسهيل لعلوم التنزيل، 1/ 13-14.

²¹ حاشية الجمل على شرح المنهج، 3/ 472.

كان فيه فهو الاستطراد)²². ونلاحظ أن هذه التعريفات تتباين فيما بينها، فمنها ما يتطابق مع تعريف (حسن التخلص) لأنهما يحملان معنى واحداً وهو خروج الشاعر من غرض إلى غرض آخر، وقد يختلفان في كون الاستطراد يعني عودة الشاعر إلى الغرض الأول الذي بدأ به بعد أن يخرج منه إلى غرض آخر، وهذا موجود في النثر كذلك وربما كان الجاحظ أبرز الذين تميّزوا بالاستطراد في أساليب كتاباتهم. ومن أمثلة الاستطراد قول أبي تمام في وصف فرس:

ولو تراه مشيحاً والحصا زيم على السنايك من مثني ووحدان

أيقنت إن لم تثبت أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان

فقد خرج من وصف الفرس إلى ذم رجل اسمه عثمان.²³ وإذا ما أمعنا النظر في المصطلحين وجدنا فرقا آخر بينهما، ففي (حسن التخلص) يكون الغرض الأخير هو المقصود عند الشاعر فيمهد له بغرض آخر قبل الدخول فيه، أما في الاستطراد فكأن الغرض الثاني الذي يخرج إليه الشاعر يأتي عرضاً دون قصد منه، لذا كان التعريف الأخير للاستطراد أكثر مناسبة من سواه.

ثانياً: الاقتضاب:

(الاقتضاب في اللغة الاقتطاع والارتحال وفي العرف هو الانتقال مما ابتدأ به الكلام إلى ما يلائمه)²⁴ وقيل عنه إنه: (ضد التخلص وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاماً آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالأول)²⁵، وعرف أيضاً: (أن يقطع الشاعر التشبيب ويأخذ في المديح بلا تليفق بينهما)²⁶ ومن أمثلة الاقتضاب قول الشاعر²⁷:

لو رأى الله أن في الشيب خيراً جاورته الأبرار في الخلد شيباً

كل يوم تبدى صروف الليالي خلقاً من أبي سعيد غريباً

فعند التأمل بين البيتين لا نجد علاقة بين معنى البيت الأول ومعنى البيت الثاني.

²² الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 2 / 901.

²³ ينظر: الصناعتين الكتابة والشعر، 1 / 399.

²⁴ دستور العلماء 1/105. وينظر: معجم مقاليد العلوم، 1 / 109.

²⁵ المثل السائر، 2 / 244.

²⁶ التعريف، 1 / 585.

²⁷ بلغة السالك، 1 / 11.

ثالثاً: حسن المطلب:

تكلم السيوطي على حسن التخلص والمصطلحات التي تقرب منه في المعنى، فذكر فصل الخطاب والاستطراد، ثم ذكر أن ما يقرب من حسن التخلص حسن المطلب وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾²⁸.

رابعاً: فصل الخطاب:

وردت عبارة (فصل الخطاب) في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾²⁹ وصفاً لداود عليه السلام، قال الزمخشري: (فصل الخطاب: البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه)³⁰، وقيل هو (عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال بحيث لا يختلط شيء بشيء وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام والله أعلم)³¹ وقيل إن فصل الخطاب (الذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه (أما بعد) لأن المتكلم يفتح كلامه في كل أمر ذي شأن بذكر الله وتحميده فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله أما بعد)³² وقيل إن لفظة (هذا) من الفصل في الكلام كقوله تعالى: (وَإِذْ كُنَّا عِبَادًا لِّإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ {45} إِنَّا أَخْلَصْنَاَهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ {46} وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ {47} وَإِذْ كُنَّا نَسْمَعُ نَادِيَ الْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ {48} {49})³³ إذ ذكر الأنبياء عليهم السلام ثم لما أريد باب آخر في الكلام وهو ذكر الجنة وأهلها قال تعالى (هَذَا ذِكْرٌ) ثم قال: (وَإِنَّ لِّلْمُتَّقِينَ لِحُسْنٍ مَّآبٍ) ثم تكرر الأمر في قوله تعالى: (هَذَا وَإِنَّ لِّلطَّائِفِينَ لَشَرٌّ مَّآبٍ)³⁴، يقول ابن الأثير: وهذا من فصل الخطاب الذي هو أطف موقعا

²⁸ الفاتحة، 5. ينظر: الإتيان في علوم القرآن 2/293.

²⁹ ص، 20.

³⁰ الكشف 4/82.

³¹ التفسير الكبير، 26/164.

³² المثل السائر 2/260. وينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا 1/492،

³³ سورة ص، 45-49.

³⁴ سورة ص، 55.

من التخلّص.³⁵ (وقد وردت لفظة هذا في الشعر إلا أن ورودها فيه قليل بالنسبة إلى الكلام المنثور فمن قول الشاعر المعروف بالخباز البلدي في قصيدة أولها

هذا وكم لي بالجنينة سكرة أنا من بقايا شربها مخمور
باكرتها وغصونها مغروزة والماء بين مروزها مذعور
في ستة أنا والنديم وقينة والكأس والمزمار والطنبور)³⁶

خامسا: صحة النسق:

هذا مصطلح آخر لا يبتعد معناه عن معاني المصطلحات السابقة، ويقصد به أن الشاعر (يستمر في المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلّص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسيب إلى المدح فإن المحدثين أجادوا التخلّص حتى صار كلامهم في النسيب متعلقا بكلامهم في المدح لا ينقطع فأما العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون هذه الطريقة وإنما كان أكثر خروجهم من النسيب إما منقطعا وإما مبنيا على وصف الإبل التي ساروا إلى الممدوح عليها ومما يستحسن من خروج المحدثين قول أبي عبادة البحرني يصف الروض:

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي في خدود الخرائد
كأن يد الفتح بن خاقان أرفلت تليها بتلك البارقات الرواعد)³⁷



هذا مصطلح (حسن التخلّص) وهذه هي المصطلحات التي تقترب منه وربما تتطابق معه، وهذا أمر أراه واضحا بيّنا في ما كتبه علماء البلاغة عن تلك المصطلحات، والحق أن هناك صعوبة في عزل هذا المصطلح البلاغي عن بقية المصطلحات التي تقترب منه من حيث الدلالة، ولاسيما عند من لم يقف بصورة دقيقة عند معاني المصطلحات البلاغية المتعددة، فعلى سبيل المثال إن (أسلوب الحكيم) وهو من المفاهيم البلاغية المعروفة، إذا ما أمعنا النظر فيه سنجدّه نوعا من (حسن التخلّص)، إذ يعرفه البلاغيون بأنه العدول (في الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيها على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك)³⁸،

³⁵ ينظر: المثل السائر، 2/ 260.

³⁶ م.ن. 2/ 261.

³⁷ سر الفصاحة 1/ 268 .

³⁸ كتاب الكليات ج1/ص501

وقيل عنه أيضا (عبارة عن ذكر الأهم تعريضا بالمتكلم على تركه الأهم)³⁹ وهذا التعريف يشير إلى أن المجيب يتخلص من الإجابة المفترضة على سؤال معروض إلى إجابة أخرى فيها فائدة غفل عنها السائل هي أجدر مما يريده السائل. وهذا يعني أن (أسلوب الحكيم) يمثل حسن تخلص بمعناه اللغوي وليس الاصطلاحي، لذلك ليس من الصحيح وضعه ضمن هذه المجموعة من المصطلحات. ولكي أوضح هذا التداخل والتقارب في معاني هذه المصطلحات أسوق أقوالا للعلماء في هذا الشأن، إذ قيل: (ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلص كقول القائل بعد حمد الله أما بعد قيل وهو فصل الخطاب)⁴⁰، وهذه عبارة جمعت ثلاثة مصطلحات مرة واحدة؛ الاقتضاب والتخلص وفصل الخطاب، ومن تعريفات (فصل الخطاب) أنه (تخليص الكلام إلى المقصود مع قرب الملاءمة)⁴¹ وهذا تعريف يجمع التخلص مع فصل الخطاب، ويقول السيوطي: (ويقرب من الاستطراد حتى لا يكادان يفترقان حسن التخلص وهو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما)⁴² (وقال بعضهم الفرق بين التخلص والاستطراد أنك في التخلص تركت ما كنت فيه بالكلية وأقبلت على ما تخلصت إليه وفي الاستطراد تمر بذكر الأمر الذي استطرقت إليه مرورا كالبرق الخاطف ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضا)⁴³ ويقرب من حسن التخلص الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطا للسامع مفصولا بـ (هذا) كقوله تعالى: في سورة ص بعد ذكر الأنبياء (هذا ذكر وإن للمتقين... الآية)⁴⁴ ، وقيل أيضا إن (حسن التخلص) يقرب من (حسن المطلوب).⁴⁵

وهذا يدل دلالة واضحة على ما ذهب إليه أنفا من تقارب معاني المصطلحات وعسر الفصل بينها، ولكن ذلك لا يعينني وأنا بصدد التقعيد لمصطلح معماري مستقيدا مما وجدته من ثراء علمي وجمالي في البلاغة العربية، لا يعينني من رسم الحدود الواضحة بين هذه المصطلحات تمهيدا للترجمة التي ذكرتها في مقدمة البحث، أي نقل المفهوم البلاغي الذي يدركه العقل بعد أن تتحسسه حاسة السمع إلى مفهوم معماري يدركه العقل بعد أن تتحسسه حاسة البصر وربما الحواس الأخرى. ويمكن صياغة الاستنتاجات مما سبق ذكره على النحو الآتي:

³⁹ التعريفات ج1/ص39

⁴⁰ الإيضاح في علوم البلاغة 1/394.

⁴¹ معجم مقاليد العلوم 1/109.

⁴² الإتيان في علوم القرآن 2/291.

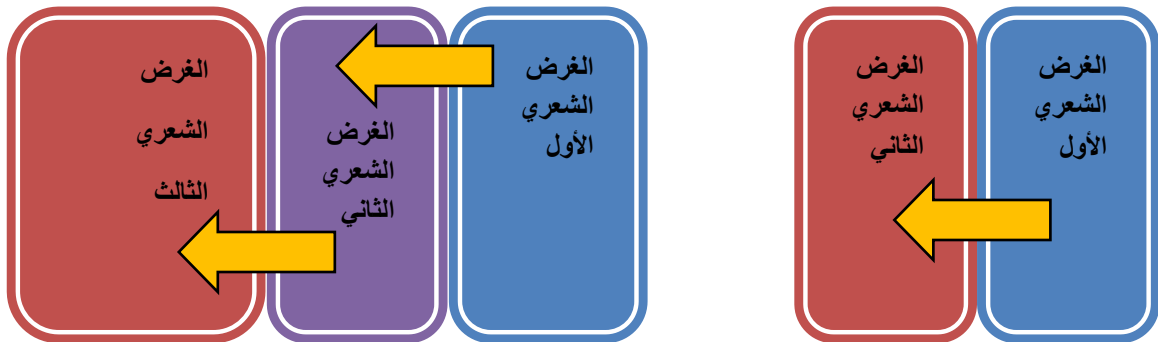
⁴³ م. ن. 2/292.

⁴⁴ ينظر: م. ن. 2/292.

⁴⁵ ينظر: م. ن. 2/293.

الاستنتاج الأول: إن المعنى الأبرز الذي يظهر في مصطلح (حسن التخلص) والمصطلحات الأخرى، والذي يعدّ القاسم المشترك بينها جميعا هو مفهوم (الانتقال)، فحسن التخلص قيل في تعريفه: (حسن الانتقال من غرض إلى غرض آخر) وصحة النسق قيل عنها: (...فإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه....) وورد في تعريف فصل الخطاب: (...فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق) وعن حسن المطلب قيل: (حسن المطلب وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة) وفي الاقتضاب قيل: (الاقتضاب في اللغة الاقتطاع والارتحال وفي العرف هو الانتقال) وورد في تعريف الاستطراد: (أن يتطرق من كلام إلى كلام آخر). والانتقال بمعناه المجرد قد يكون على الحقيقة وقد يكون على المجاز، ولا شك في أن معناه الوارد في تلك المصطلحات يحمل على المجاز، فانتقال الشاعر من غرض إلى غرض هو انتقال معنوي لا مادي، ونستطيع أن نستعير هذا المعنى المجرد إلى عالم العمارة فنجعله انتقالا حسيًا، أي من حيز مكاني إلى حيز مكاني آخر، لذلك وتأسيسا على التعريفات السابقة سأمثل مفهوم الانتقال على هيئة مخططات على النحو الآتي، تمهيدا لعرض ظلالها في عالم العمارة الجميل:

أولاً: حسن التخلص، وفيه نوعان كما ذكرنا



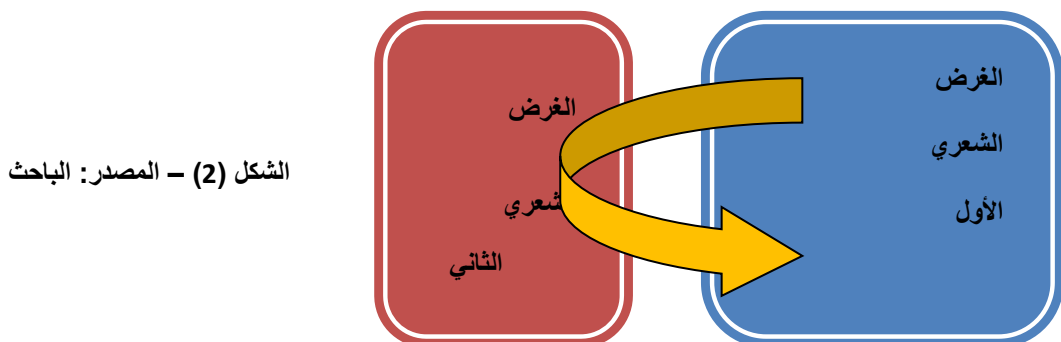
النوع الثاني: وهو ما يمثل انتقال الشاعر من الغزل إلى غرض ثان ثم إلى المديح، مثاله برودة المديح ونهج البردة

الشكل (1 ب) - المصدر: الباحث

النوع الأول: وهو ما يمثل انتقال الشاعر من الغزل إلى المديح مباشرة من دون غرض ثالث، مثاله قول أبي نواس وما أعقبه من أمثلة

الشكل (1 أ) - المصدر: الباحث

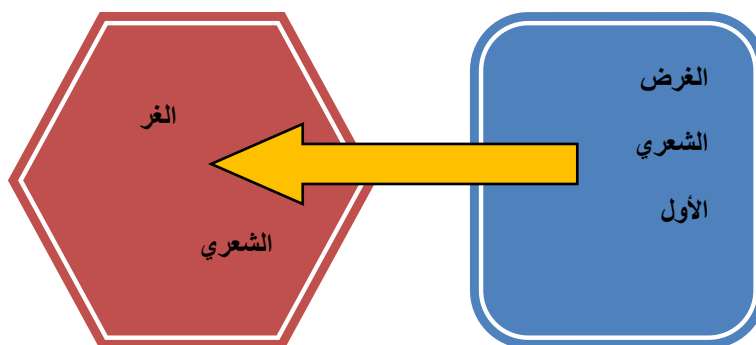
ثانياً: الاستطراد، ويمكن تمثيله على النحو الآتي:



الشكل (2) - المصدر: الباحث

لأن في الاستطراد كما ذكر سابقا كأن الشاعر يريد مذهباً وهو إنما يريد غيره ثم يقطع ويرجع إلى ما كان فيه.

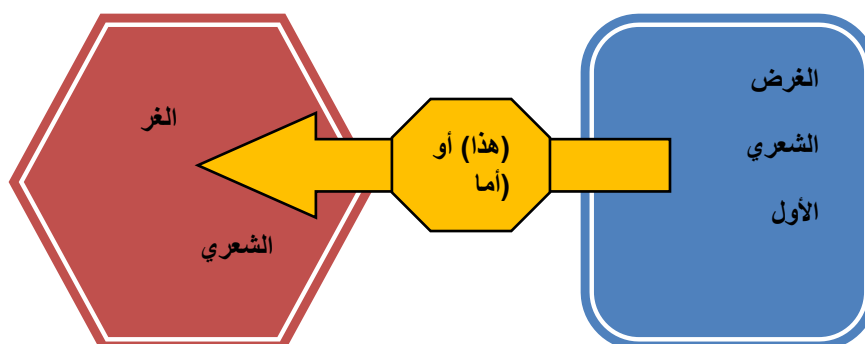
ثالثاً: الاقتضاب، سبق أن قلنا إن الاقتضاب (ضد التلخص وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاماً آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالأول)، ومن هذا التعريف يتبين لنا أمران، الأول؛ إن الاقتضاب يتفق مع حسن التلخص في كونهما يمثلان انتقالاً من غرض إلى غرض، ويختلفان في كون الاقتضاب انتقال بين كلامين لا علاقة لأحدهما بالأول، فالفاصل بينهما يمثل فصلاً تاماً بين المعنيين، أما في التلخص فالأمر ليس كذلك لذلك يمكن أن نجد الانتقال في حسن التلخص يحصل في بيت واحد كما تبين لنا ذلك من قبل، ويمكن تمثيل الاقتضاب على النحو الآتي:



الشكل (3) يلاحظ اختلاف الغرض الأول عن الغرض الثاني في اللون والشكل تعبيراً عن اختلاف الغرضين كلياً، أما في المصطلحات الأخرى فلم يكن الأمر كذلك. (المصدر: الباحث)

رابعاً: حسن المطلب، وهو لا يختلف عن حسن التلخص من حيث تمثيله

خامساً: فصل الخطاب، وهو انتقال من كلام إلى كلام مفصولاً بينهما بكلمة (هذا) أو بـ (أما بعد)، ويمكن تمثيله على النحو الآتي:



الشكل (4) - المصدر: الباحث

سادسا: صحة النسق، وهو لا يختلف في جوهره عن (حسن التلخص)

الاستنتاج الثاني: اعتمادا على ما تقدم في الاستنتاج الأول، وأخذا بما تتطلبه العمارة في جانبها المادي التنفيذي، يمكن القول إن المعاني المتقاربة جدا بين هذه المصطلحات المذكورة أنفا تدفعنا لاختصار هذه المصطلحات إلى عدد أقل لعدم الحاجة إليها، والذي يسوّغ ذلك أن أهل البلاغة أنفسهم تقاربت تعريفاتهم لهذه المصطلحات حتى أنها تطابقت في بعض الأحيان كما ذكرنا سابقا، وسأقتصر في الجانب المعماري من البحث على مفهومين رئيسين؛ أولهما: (الانتقال) من حيّز مادي إلى حيّز مادي آخر، والثاني: الوظيفة التي تشغل هذه الأحياز المتباينة.

الاستنتاج الثالث: ستكون لدي في العمارة أنواع الانتقالات الآتية:

- 1) الانتقال من حيّز وظيفي إلى حيّز وظيفي آخر بينهما نوع من التواصل المكاني القريب. (يقابل النوع الأول من حسن التلخص)
- 2) الانتقال من حيّز وظيفي إلى حيّز وظيفي آخر ثم الانتقال إلى حيّز وظيفي ثالث على أن يمثل الحيّز الثالث الغاية من الانتقال بين هذه الأحياز. (يقابل النوع الثاني من حسن التلخص)
- 3) الانتقال من حيّز إلى حيّز ثم العودة إلى الحيّز الأول لأنه المكان الرئيس للوظيفة المطلوبة. (يقابل الاستطراد)
- 4) الانتقال من حيّز وظيفي إلى آخر لا تربطهما أي علاقة. (يقابل الاقتضاب)
- 5) الانتقال من حيّز إلى آخر عبر منطقة صغيرة نسبيا تفصل بين الحيّزين لانعدام العلاقة بينهما، على أن يكون الانتقال مقصودا لذاته. (يقابل فصل الخطاب).

هذه هي القاعدة النظرية المستنبطة من الدرس البلاغي العربي التي يمكن توظيفها معماریا، ولها صورها المتعددة في الواقع المعماري، سأبينها في ما يأتي من مادة هذا البحث.

1) النوع الأول من حسن التلخص وتمثله النماذج المعمارية الآتية:

قال البلاغيون إن من حسن التلخص أن (لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد)، والذي نلاحظه في هذه الصور أن الذي ينتقل من المطبخ إلى الفناء أو الممر المجاور للمسبح عبر

الباب



ب / 5

أ / 5

الأشكال (5أ، ب، ج، د) المصدر:
موقع (بيتك) على الشبكة
العنكبوتية

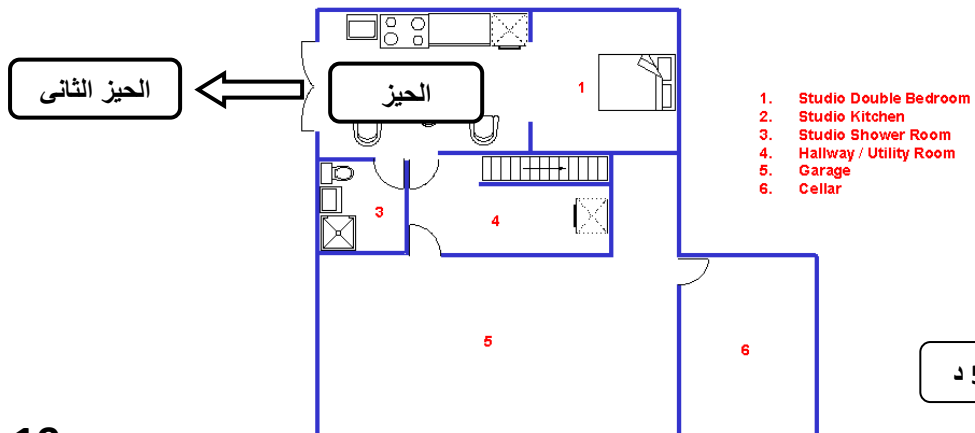


ج / 5

الزجاجية الواسعة نجده لا ينتقل من الحيز الأول إلا وقد وقع في الثاني كأنهما فناء واحد لشدة التوافق الوظيفي والجمالي بينهما.

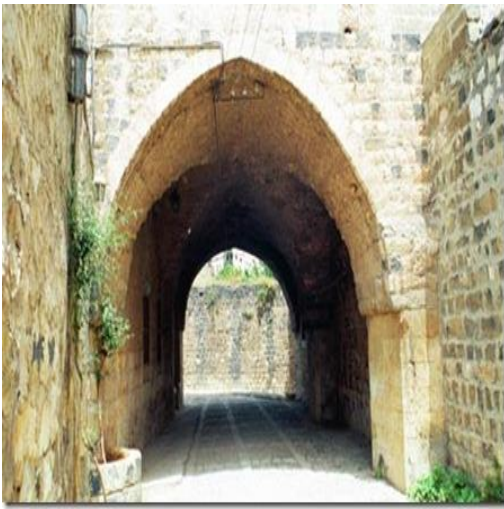
ولزيادة الأمر وضوحًا نطلع على هذا التواصل بين المطبخ والفناء الخارجي على المخطط الأفقي لهذا المنزل:

Plan of Lower Ground Floor



د 5

ومن الأمثلة المعمارية الأخرى على هذا النوع من التخلص ما نجده في بعض الطرز المعمارية في بعض المدن العربية والإسلامية؛ منها مدينة عنه في غرب العراق، ومدينة دمشق القديمة ومدينة القدس، ومدينة حماة وغيرها، ويظهر فيها الانتقال من فناء عام إلى زقاق عريض لا يفصل بينهما إلا قوس في مدخل الزقاق، يمثل انتقالاً من حيّز إلى حيّز مع كونهما متصلين كأنهما مساحة واحدة. (تتظر الأشكال 6أ، 6ب، 6ج).



الشكل (6ج) مدينة حماة
القديمة المصدر: موقع عكس
السير



الشكل (6ب) مدينة دمشق
القديمة المصدر: موقع عكس
السير



الشكل (6أ) مدينة القدس القديمة.
المصدر: موقع تاريخ فلسطين

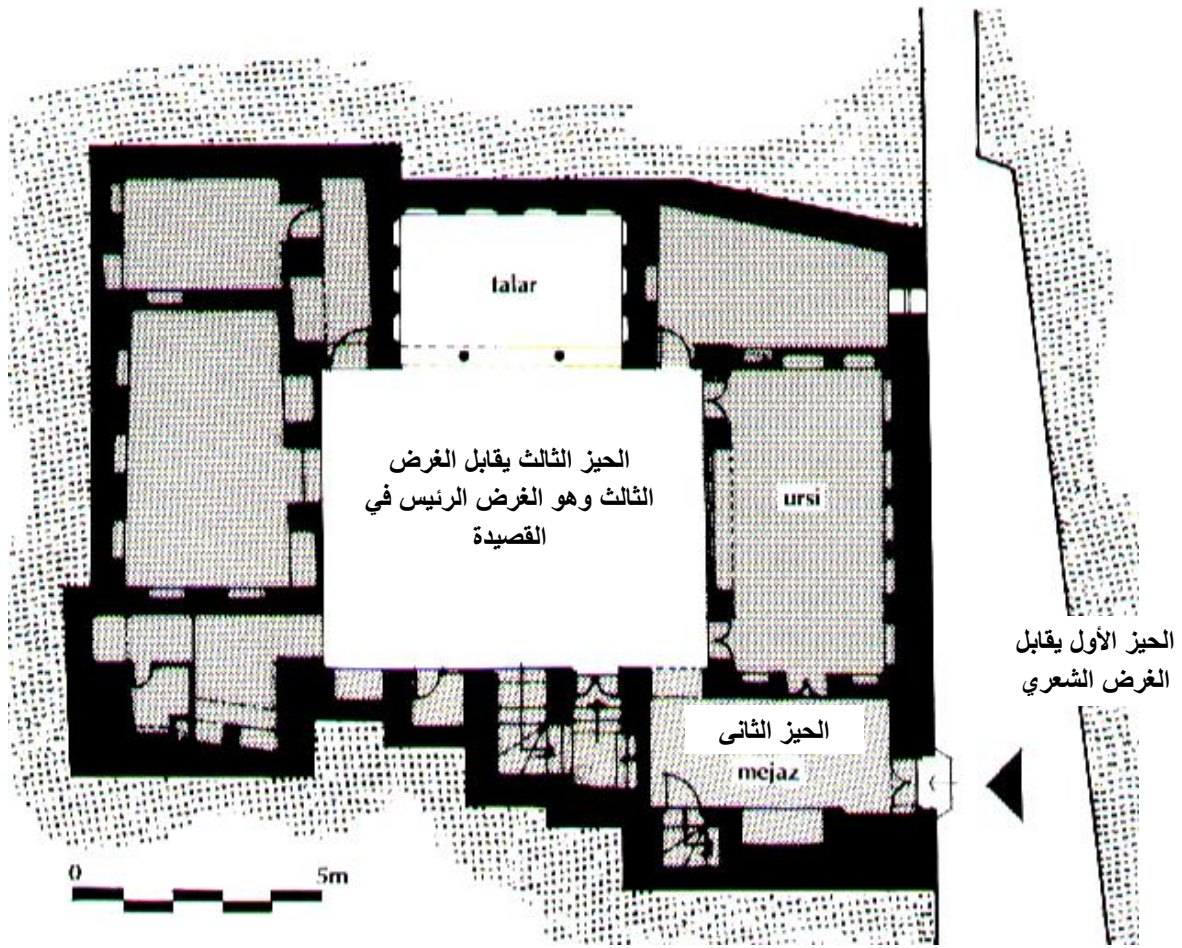
(2) النوع الثاني من حسن التخلص، ويقابله معمارياً الانتقال بين أحياز ثلاثة بروم المتنقل من تنقله بلوغ الحيّز الثالث، وهو ما مثله قصيدتنا البوصيري وأحمد شوقي، ولعل أبرز مثال معماري على هذا النوع هو جامعة بغداد في الجادرية، فالانتقال يكون من أجواء المدينة مروراً بالشارع الطويل الذي يأتي بعد المدخل، وهو الحيز الوسطي الذي يقابل الغرض الشعري الثاني في حسن التخلص، وينتهي المسار إلى الأبنية الخدمية في الجامعة من كليات ومراكز بحثية وما إلى ذلك من المرافق الأخرى، وهذا موضح في الصورة الجوية الآتية:



(الشكل 7) جامعة بغداد في الجادرية، تصميم المهندس المعماري الأمريكي والتر كروبيوس. المصدر: موقع GOOGLE EARTH

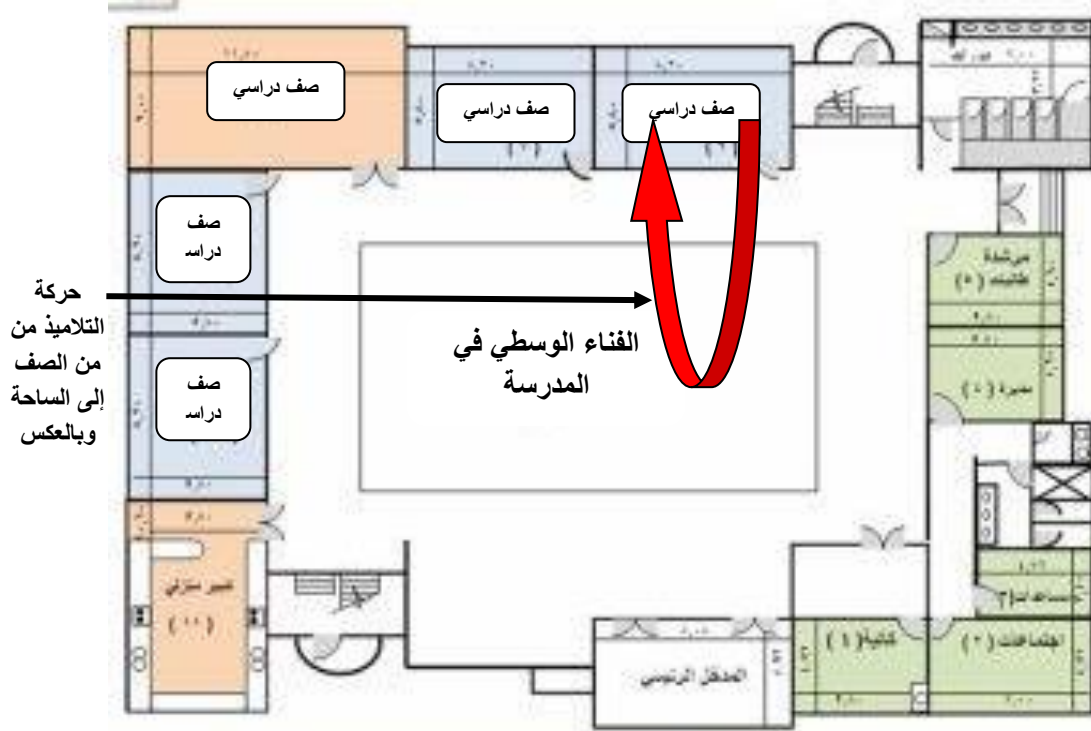
ويمكن أن نسوق مثالا آخر على النوع الثاني من حسن التخلص، وذلك كائن في الطرز المعمارية للبيوت السكنية البغدادية القديمة، وربما وجدت هذه الطرز في المدن العربية الأخرى، وفكرة تصميم البيت كانت تتحصر في الانتقال من الشارع وهو الحيز الأول إلى فناء الدار عبر ممر يسمى (مجازاً)، ويكون هذا الممر معكوفاً من في نهايته لكي لا يسمح بالنظر من الشارع إلى داخل فناء البيت الذي يكون مشغولاً بساكنيه، وليس هذا فحسب فالطرز الحديثة للدور السكنية فيها أثر هذا النوع من التخلص، فمرآب السيارة الذي يمتد من الباب الخارجي للدار وينتهي بالباب الرئيس الداخلي إنما يمثل

حسن تخلص من الشارع العام ليصل ساكن الدار بعد المرور به إلى فناءه، ويمكن توضيح ذلك في المخطط الآتي:



الشكل (8) يمثل مخطط أفقي لدار سكنية يظهر فيها الممر المنكسر (المجاز) بعد المدخل.

3) النوع الثالث من الانتقال ويقابل (الاستطراد)، وهذا يمكن ملاحظته في الأبنية التي تكون حركة شاغليها تبدأ من حيز وظيفي ثم الخروج منه والعودة إليه، وخير مثال على ذلك هو المدارس الابتدائية أو المتوسطة أو الإعدادية، فالوظيفة الرئيسة في المدرسة هي التعلم ومكانه قاعة الدرس، أما الساحة الوسطية في المدرسة فتتمثل الحيز الذي يخرج إليه التلاميذ ثم لا يلبثوا أن يعودوا إلى قاعة الدرس. ويمكن توضيح هذا المفهوم في المخطط الآتي:

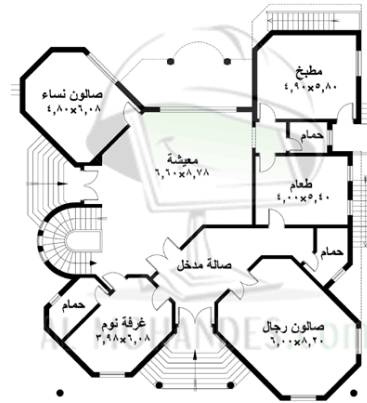


الشكل (9) يمثل مخطط أفقي لمدرسة ابتدائية يتوضح فيه انتقال التلاميذ من القاعات الدراسية إلى الفناء الوسطي للمدرسة ثم العودة إلى الصفوف، وهذا يتطابق مع الانتقال من غرض إلى غرض ثم العودة إلى ما بدأ به الشاعر أو الكاتب أو المتكلم، وهو ما أطلق عليه (الاستطراد). (المصدر: موقع إدارة منطقة الباحة)

(4) النوع الرابع من الانتقال ويقابل (الافتضاب) في البلاغة العربية، وهو الانتقال بين حيزين لا علاقة وظيفية بينهما، وهذا أمر أراه واضحا بينا في معظم الأبنية والمنشآت، فالكثير من الوظائف يختلف بعضه عن بعض اختلافا كبيرا، فغرفة النوم لها وظيفة تختلف عن غرفة المعيشة، وهذه وظيفتها تختلف عن وظيفة المخزن، وغرفة مدير المعمل لها خصائص ومواصفات تختلف كثيرا عما يجري في الورشة من أعمال فنية، لذلك لا أجد مسوغا لضرب مثل معماري على هذا النوع من الانتقال. وأستطيع أن أقول إن اللغة كلها والعمارة كلها لا تتفكان عن هذا النوع من الانتقال وهذه من البديهيات المنطقية، لأن الإنسان لا يمكن أن يتحدث في موضوع واحد في حياته ولا أن يعيش في حيز واحد في حياته، فالانتقال والحالة هذه يصبح من المسلمات التي لا تحتاج إلى إيضاح.

(5) النوع الخامس من الانتقال هو ما يقابل (فصل الخطاب)، وهذا النوع يختلف عن سابقه من الانتقالات وله خصوصية واضحة في العمارة، ويمكن التوصل إلى معرفة نظيره في العمارة عندما نستذكر أن الفصل في الكلام يكون بكلمة واحدة وهي (هذا) أو كلمتين وهما (أما بعد)،

وينبغي أن نستحضر هنا مسألة مهمة وهي أن الانتقالات التي مرّت بنا في المقابلات السابقة بين البلاغة والعمارة، كان لكل توقف فيها غرض لغوي أو وظيفة معمارية، أما في (فصل) الخطاب فلا يمكن لكلمة واحدة أن تؤدي معنى مستقلا كما حصل في الأغراض الشعرية التي حصل الانتقال بينها، وهذا يعني أن نبحث عن حيز معماري لا فائدة منه إلا الانتقال من مكان له وظيفة إلى مكان له وظيفة مغايرة تماما عنه ليقابل هذا النوع من الانتقال اللغوي، وإني لأجد أن أنسب صورة معمارية لهذا الأمر هو الممر القصير في مدخل الدار (صالة المدخل) (corridor) الذي يمثل مساحة ينتقل فيه داخل الدار من الفناء الخارجي (المرآب مثلا) إلى المرافق الداخلية للبيت، كغرفة الاستقبال أو الصالة، فيكون مفصلا حسنا للانتقال بين الأحياء المختلفة من غير أن يؤدي وظيفة أخرى سوى ذلك، وكذلك الممر الذي يفصل بين الغرف في الفنادق الذي لا مهمة له سوى الانتقال من صالة الفندق إلى كل غرفة فيه، وهو ما يقابل (هذا) أو (أما بعد). لاحظ (الشكلين 10 أ ، 10ب).



الشكل (10ب) صورة لممر في فندق تتوزع منه الغرف على جانبيه، وغايته الفصل بين صالة الفندق وغرفه للانتقال عن طريقه إليها.

الشكل (10أ) يمثل مخطط أفقي لدار سكنية تظهر فيها صالة المدخل (corridor) وهي التي تقابل (هذا) و (أما بعد) في فصل الخطاب

النتائج والتوصيات:

توصل البحث إلى نتائج أجملها في ما يأتي:

1) إن هذه التفاصيل الدقيقة التي توقف عندها علماء العربية ووصفوها وصفا بارعا حتى أنهم ميّزوا بين المعاني التي لا تكاد تظهر إلا بعقل باهر وذوق رفيع، فأعطوا لكل معنى منها مصطلحاً خاصاً به، ليدل ذلك دلالة واضحة على الجهود الكبيرة التي بذلوها في خدمة اللغة العربية وفي درسها البلاغي على وجه الخصوص. ومن ذلك ما وجدته من وصف دقيق لمصطلح (حسن التخلّص) والمصطلحات ذات الصلة.

2) إن ما ذكرته آنفاً في النتيجة الأولى لا يعني أبداً إعفاء الباحث الجاد من أن يمتلك نظرة نقدية تؤهله لوضع الأمور في نصابها الصحيح ما وجد لذلك سبيلاً، لذا أرى أن لا بأس في أن نسعى لتيسير الدرس البلاغي فنعمد إلى اختصار هذا العدد الكبير من المصطلحات البلاغية، ما دامت تلك المصطلحات تنطوي على معنى عام واحد، فالمصطلحات الستة التي وردت في هذا البحث، وهي (حسن التخلّص، والاستطراد، والاقتضاب، وحسن المطلب، وفصل الخطاب، وصحة النسق) وغيرها إن وجدت كـ (براعة التخلّص) كل هذه يمكن أن نطلق عليها مصطلحاً واحداً وهو (حسن التخلّص)، ما دامت هناك وشيجة تربط هذه المصطلحات برابط المعنى، وهو (الانتقال من غرض إلى آخر)، ولا بأس بعد ذلك في شرح أنواعه.

3) أثبت البحث أن اللغة والعمارة حقلان معرفيان يمكن لهما أن يتوافقا في مستويات متعددة، من ذلك توافق اللغة بمستواها البلاغي مع العمارة بمستواها الجمالي.

4) أثبت البحث أن التفاصيل الدقيقة التي توقف عندها علماء البلاغة فميّزوا على أساسها هذه المعاني فأعطوا لكل معنى مصطلحاً، يمكن أن نجد نظائرها في عالم العمارة بكل تفاصيلها.

5) أثبت البحث أن القاسم المشترك الأكبر بين هذه المصطلحات هو معنى (الانتقال) وإن تعددت صورته، وأن البحث نقل هذا المعنى من مفهومه المجازي في البلاغة إلى مفهومه الحسي في العمارة فكان لكل مصطلح بلاغي صورته المعمارية المقابلة.

ويوصي البحث بما يأتي:

1) إدخال مادة البلاغة العربية وجعلها مادة أساسية في دراسة العمارة ولاسيما في الدراسات العليا، ابتغاء تزويدهم بخزين معرفي يسعفهم في عملية الإبداع المنتظرة منهم عند وضع تصاميم مشاريعهم المستقبلية.

(2) إدخال بعض المواد الدراسية التي تحمل طابعا فنيا جماليا في أقسام اللغة العربية ، مثل تدريس مادة الخط العربي والتوقف عند جماليات حروفه، ولا بأس في أن يربط أساتذة الأدب والنقد موادهم الدراسية مع بعض المفاهيم الفنية في الرسم والعمارة.

(3) حث طلبة الدراسات العليا في أقسام الهندسة المعمارية وأقسام اللغة العربية على القيام ببحوث مشتركة تتضافر فيها المعاني البلاغية مع المعاني المعمارية لتكون لها نكهتها الخاصة التي لا يمكن الحصول عليها عند دراسة كل اختصاص على انفراد. ولا بأس في أن يكون الإشراف مشتركا بين أساتذة اللغة وأساتذة العمارة، كما حصل معي إذ أشرف عليّ أستاذان من أساتذة البلاغة والعمارة في بحث الدكتوراه، وهما الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب، والأستاذة الدكتورة غادة موسى رزوقي.

(4) حث طلبة الدراسات العليا في أقسام اللغة العربية على كسر الرتابة التي أصبحت سمة مميزة لبحوثهم، وذلك بطرق أبواب المعارف الأخرى، من نحو علوم النفس والاجتماع والفنون، وعلوم الهندسة، ولاسيما الهندسة المعمارية.

قائمة المصادر والمراجع

- 1) الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تد: سعيد المنذوب، دار الفكر، لبنان، ط1، 1416هـ - 1996م.
- 2) أحمد شوقي (الأعمال الشعرية الكاملة)، دار العودة، بيروت، (لا.ت.).
- 3) الأغاني (أخبار أبي نواس)، أبو الفرج الأصبهاني، تد: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، لبنان، (لا.ت.).
- 4) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، مراجعة: الشيخ بهيج الغزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988م.
- 5) بردة المديح المسماة بالكواكب الدرية في مدح خير البرية، نظم الإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، شرح ألفاظها الشيخ يوسف بن اسماعيل النبهاني، دار الحديث الكتانية، بيروت (لا.ت.).
- 6) البرهان في إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تد: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1426هـ - 2006م.
- 7) بُلغة السالك لأقرب المسالك، أحمد الصاوي، تد: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ - 1995م.
- 8) تاج العروس، محمد مرتضى الحسيني، تد: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (لا.ت.).
- 9) التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبى، دار الكتاب العربي، لبنان، ط4، 1403هـ - 1983م.
- 10) التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت816هـ)، تد: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ.
- 11) التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (ت604هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.
- 12) التوقيف على مهمات التعاريف التعاريف، محمد عبد الرؤوف مناوي، تد: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط1، 1410هـ.
- 13) حاشية الجمل على شرح المنهج، سليمان الجمل، دار الفكر، بيروت، (لا.ت.).
- 14) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت1093هـ)، تد: محمد أميل الطريفي، وأميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.

- (15) دستور العلماء، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، عزّبه عن الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م.
- (16) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تد: محمد عبده عزّام، دار المعارف، القاهرة، ط4، (لا.ت.).
- (17) ديوان أبي العلاء المعري سقط الزند، دار بيروت ودار صادر، بيروت، 1376هـ - 1957م.
- (18) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني، تد: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ - 1997م.
- (19) سر الفصاحة، الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت466هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م.
- (20) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، تد: عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، 1981م.
- (21) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تد: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1406هـ - 1986م.
- (22) فوات الوفيات، محمد بن شاكر أحمد الكتبي، تد: علي بن محمد بن يعوّض الله وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.
- (23) في المنهج النقدي، د. أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1429هـ - 2008م.
- (24) الكشف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، تد: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (لا.ت.).
- (25) الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، تد: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998هـ.
- (26) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري (ت711هـ)، دار صادر، بيروت، ط1، (لا.ت.).
- (27) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير، تد: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995م.

- (28) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1413هـ - 1993م.
- (29) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1403هـ - 1983م.
- (30) معجم مقاليد العلوم، أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تح: أ.د. محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1424هـ - 2004م.
- (31) الممتع في التصريف، ابن عصفور الأشبيلي (ت669هـ)، تح: د. فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب، ط1، 1970م.
- (32) هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي، وكالة المعارف الجليلة، استنبول، 1955م.
- (33) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، (لا.ت.).